وهنالك الكثير منها مما لا يتسع المقام لذكره . ولا تقتصر هذه المواطن الخفية الغامضة على حوادث التاريخ الاسلامي ؛ ولكنها تمثل في تواريخ معظم الأمم والعصور ؛ فما من عصر إلا وله أساطيره ، وما من أمة إلا ولها أساطيرها القومية ، وقد كانت هذه الأساطير وهذه المواطن الخفية تمت في الغالب بصلة الى الدين أو إلى الاطماع والمشاريع السياسية ، وكان يستغلها دائما دعاة مهرة ومغامرون لهم من الجرأة والاقدام ، ما يكفل تحقيق مشاريعهم ؛ وكان السلطان الروحي أو السياسي دائما مطمح أولئك الدعاة أو المغامرين ؛ وفي أحوال كثيرة نرى الأسطورة الدينية أو الدعوة الخفية تنتهي بانفجار تعقبه انقلابات سياسية واجتماعية خطيرة ، وفي بعض الأحيان نرى الأسطورة أو الدعوة تفضي إلى قيام دولة جديدة أو مذهب ديني أو سياسي جديد

ولا ريب أن هذه الأساطير والدعوات والحوادث الخفية تبدو في عصرنا حديث خرافة ، ومن المستحيل أن تشق طريقها بعد في أمة متمدنة أو مجتمع مستنير ولكن يجب أن نذكر فوارق العصر والظروف ، وأن نحكم على هذه الظواهر الغريبة بمعيار العصر الذي حدثت فيه . على أننا نجد في التاريخ الحديث ، وفي المجتمعات الحديثة المتمدنة أيضاً أمثلة مدهشة من هذه الأساطير والظواهر الخفية تشق طريقها إلى أرقى المجتمعات وتثير الدهشة والروع في نفوس الكبراء فضلا عن الكافة ؛ ففي القرن الثامن عشر ظهر في ألمانيا والنمسا وفرنسا عدة من الدعاة والمغامرين السريين مثل يعقوب فرنك (أو الكونت أوفنباخ) والدكتور فوك ، ويوسف بلسامو (أو الكونت كاجليوسترو) ، والكونت سان جرمان وغيرهم ، وجابوا المجتمعات الأوربية الرفيعة ، وأثارت مزاعمهم ودعاويهم في الخلود وعلم الغيب ، ومزاولة السحر ، والخوارق ، كثيرا من الدهشة والروع ؛ بيد أن هؤلاء المغامرين الدهاة لم يحاولوا أكثر من تحقيق مطامع محلية وشخصية ؛ ذلك أن العصر الذي كانت فيه جرأة الدعاة تتجه إلى انشاء المذاهب الدينية أو الدول السياسية ، كان قد انتهى منذ بعيد ، ولم يبق امام الأواخر من الدعاة والمشعوذين إلا أن يعملوا في ميدان متواضع جدا لتحقيق المآرب والأهواء الشخصية ؟

(تم البحث) محمد عبد الله عنان

ذكرى زوجة

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

حدثني صاحبي قال :

عشر سنين سوياً هي مدى العيش بيني وبينها

هي فنطرة حياتها الجديدة اجتازتها عجلة إلى القبر

كانت تملأ بيتي نوراً ، ونفسي حبوراً ؛ يدلني بالوحشة انساً ، وبالوحدة جمعاً . هؤلاء أولادها نجوم سماء أرسلتها العناية الالهية لتكون معجزة الله في نظام الأسرة ، وفي بعث الأمل الباسم ، وفي سعادة الآباء والأمهات ، ثم لم يتمتعها الدهر بهم إلا قليلا ، واستودعتني صغاراً كأفراخ الطير ، وذهبت في عالم السماء .. ..

دعني يا أخي أخفف من برحاء حزني بقطرات من الدمع هي كل ما أملك عندما يغلي مرجل قلبي بذكراها

دع دماء قلبي تتبخر فتستحيل دموعاً ؛ ففي انبثاقها هدوء لوعتي وأشجاني ، فقد انصبت أحزان الناس جميعاً في مصيبتي ، فما أطيق لها حملا

أفما رأيت المحزونين يتعزون بي ، وينسون مصائبهم إذا رأوني ، فيرثون لبلواي ، ويمسحون بتعازيهم قيض عينيّ التي هي مساني دموعهم على موتاهم ؟

يا لأيامها الحلوة ، ومسرتها الطاهرة ! !

أرأيت إلى البحر الصافي الساكن الذي لا يدنس في قرارته شيئاً ! ! أرأيت إلى السماء الزرقاء الجميلة تزهر بالنجوم الوضاءة ، هي رمز السرور والطمأنينة ! ! ذلك هو قلبها : إخلاص وصدق ، وأدب وحياء ، وكل ما ترتجى في الزوجة الكاملة من سمو ووفاء .. .. ..

وكأن القدر أراد أن يسقيني كؤوس السعادة مترعة ثم يسلبنيها وشيكا ليطول حزني ، وتمدى إلى الأبد جراح قلبي ، فأنا منها في همّ مقعد مقيم

قلت له : هوّن عليك يا أخي ، فما لما قضى الله حيلة ، وحسبك ما قدمت يداك ، وما قمت به نحوها من تمريض ، فقد كانت في أغلب سنيها معك بين الموت والحياة ، تسعى سعي

المُجد لتدفع القـدَر عنها ، فلم تدع طبيباً إلا استشرته ، ولا صيدلية إلا أفرغت فيها كنوز حياتك

كنت فى حياتها فى فكر ممض ، وقلق مستديم ، وليس من الانصاف لنفسك ولا لأولادك أن تظل هكذا شقياً بمماتها ..

لما استأذن حديثى على سمعه حتى ظل هُنيهة مطرقاً مفكراً ، وكأن ألحاظ الماضى تذهب وتجىء فى رأسه ، فلا يستطيع لها دفعاً ، وكأن لوحة خيال تعرض حوادث حياته مشهداً مشهداً ، وبعد أن تنبه إلىّ قال :

لست أنسى طول حياتى رزانة عقلها ، واتزان كلامها ، وجميل وفائها ؛ وقصدها فى الأمور كلها ، حتى لقد حسبت أن الله مازها بذلك من دون النساء جميعا ؛ وأن شمائل بنات حواء اجتمعت لديها ثم صارت وقفاً عليها . أرأيت إلى قطرات من المطر تنحاب من أفواه السحاب ، ثم يؤلف الله منها ماء رويا يحظى به فرد واحد من بنى الانسان ؟ تلك هى فضائلها . فان مُحى البرّ والمعروف والوفاء من نفوس الناس جميعاً فلن تبرح ذهنى ذكراها ، وهكذا تمر الأيام وروحها ماثلة أمامى ، وآثرها مشرقة اشراق الشمس ؛ فهى باقية فى معانى الكمال الانسانى ، باقية فى هؤلاء الصبية كلما خطروا أمام عينىّ ، فهم بضعة منها ، وأمثالها العزيزة على نفسى . . . . . .

كان داء قلبها مبعث آلامها ، فما تبرّمتُ لحظة فى القيام بما تفرضه شركة الحياة بينى وبينها ، ولأنى أعلم أن صخرة عاتية تنتظرنى بعد أن أنفض يدىّ من تراب قبرها ، فتحطم آمالى تحطيما ، وتفرق أجزاء نفسى شعاعاً

وكم كنت أودّ إن لم يكتب الله لها السلامة أن تعيش هكذا فى سريرها تنعم برؤية أولادها ، وأنا كل يوم أزجى اليها كواذب الآمال فى برئها ، وأزوّر مع الطبيب فى الطريق كلاماً نقوله عند لقائها ، والطبيب يشفق علىّ ويقول : حسبك فقد أبليت ، والطبّ ألقى سلاحه معترفاً بالعجز عند باب حجرتها ؛ وأما أجيبه : لا عليك أن تكرر الزيارة ، وأن تذرع الأرض جيئة وذهوباً ، وأجرك موفور ، وعذرك فى عدم الشفاء مذكور ، ورجاء أن تدخل شيئاً من برد الطمأنينة على قلبها

وقد والله كانت راضية بالقدر خيره وشره ، وماذاقت طعم النوم أشهراً إلا مثل حَسْو الطير ماء الثماد ، وكانت لا تطيب نفسها أن أسهر بجانبها حتى أقوى على أسباب العيش طول النهار ؛ فاذا نزلت عند رأيها انتابنى الفزع فى وهن الليل ، فأراها جالسة مفتوحة العينين تنتظر قضاء الله فيها ، وقد تسمع المؤذن فى الفجر يشق الفضاء بكلمة الحق : « الله أكبر » فى سكون الليل وهدوئه ، فتضرع اليه أن يحكم فيها بما يراه خيراً لها ، ثم تدعو الذى كتب لها قصر العمر أن يكتب لى طول العمر جزاء ما أسديت اليها فى أمراضها المتطاولة من برّ ومجهود ، فآسى لهذا القول ، وأذكر الأمل فى الشفاء ، فتستبعد تحقيق ما أمّلت وتقول : أيقدّر لى الشفاء فأقضى عمراً جديداً فى شكر معروفك ؟ !

ثم اشتدت بها العلة ، وبرحت بها الأوصاب . ومن عجائب القدر أن تكلفنى وزارة المعارف مغادرة المدينة لأعمل فى الامتحانات فى مدينة أخرى ، وليس من شرعة وزارة المعارف أن ترحم مثل الظروف المحيطة بى ، أو تقبل عذرى إلا إذا كنتُ أنا مدنفاً عليلا ، ويشهد جماعة من الأطباء جَهد أيمانهم أنى لا أطيق السفر ، ولا أقوى على مكابدة الأعمال

* * *

سافرت متعب الفكر ، مضطرب النفس ، وبين جنبى من الهم ما لو كان بالجبال لاندكت ، وبالبحار ما سمعت لرنات أمواجها زئيراً ، ولا لشموخ أنفها عزّة وزفيراً

وقبل سفرى تقدمت إلى أعمالى أن يراسلونى يومياً بحالتها ، وأسررت إلى بعض أصدقائى إن حلّ المقدور أن يبادر باستقدامى برقياً ، ومن عجب أن تترى الرسائل كل يوم بأن معجزة عيسى الباهرة ظهرت فى زوجى ، وأن المرض كادت تزول آثاره ! فأحدث ذلك فى نفسى حالة بين الشك واليقين . أذكر البرء فأقول : « آمنت بالله » ، « يحيى العظام وهى رميم » ، هاهودا مجهودى الطويل تتوّج بالنجاح ، وتالله إن فرحى برؤيتها سليمة ليُنسينى كل عذاب تحملته صابراً محتسباً ، ثم تخيم علىّ سُحب مظلمة تقترب من نفسى شيئاً فشيئاً فأنفجر باكياً فى حجرتى بالفندق بعد أن أحكم رتاج الباب ، وأشتق ليلتم المحزون ؛ هى تلك القطرات

يالله للانسان لو لم تكن دموع عينيه أتراه ينشق فتطير أجزاء قلبه ورأسه فلذة فى المشرق وفلذة فى المغرب ثم يتناثر جسمه إرْباً إرْباً . ثم تعود إلىّ قوة نفسى فأحس حرارة اليقين فى صدرى ، ويشعّ أمام عينىّ ضياء الأمل فأنتعش وأبنى قصور

الآمال من جديد بعد أن ضعضعتني الآسقام ، وزعزعتني الوساوس والأوهام . وعدت من السفر ودخلت عليها مسلماً لأبدل بالشك اليقين ، فرأيتها جالسة في سريرها وقد امّحت منها معالم الحياة إلا عيوناً برّاقة وروحاً رضية تتحدث حديث الأحياء وجسمها في عالم الأموات ، فعرفت زيف أحلامي التي نعمت بها مدة غيبتي عنها ، فسألت في شأن هذه الرسائل فاعتذرت إليّ بأنها شاءت أن أفرغ لعملي ، وحسبي جهود الامتحان من آلام التذكر ، فحاطت الرسائل بما يخفف عني ، ويحيي ميت الآمال من نفسي ، فأكبرت هذه المروءة وذلك العقل الكبير من حيّة ميّتة تنتظر أياما أو ساعات لتودع الحياة الدنيا وقالت لي : إنها ابتهلت إلى الله ألاّ يحل بها رب المنون حتى أعود من سفري ، وها هي ذي مشيئة الله كانت رحيمة بها كريمة عليها ، وأعلمتني أن دلائل الموت تقترب منها فقاضت شئوني . أما هي فكانت الثقة بالله ملأ جوانب نفسها والتسليم للمقادير ما يلهج به لسانها في كل حين فكانت هادئة رزينة مكتملة العقل كعادتها

* * *

ثم عدت إلى المنزل في الظهيرة وقارورة الدواء الأخيرة في يدي فنظرت اليها كما ينظر الموتور الى واتره فأجفلت منها وكأنها نذير الموت جاء يعجلها فقالت : في هذه الزجاجة بقية عمري فأبعدوها عني ولا تقضوا ختامها : ارحموني فقد تمزق جسمي بالحقن فلم يسلم جزء فيه من طعناتها ، وتقطعت أحشائي بالمقاقير وأنا صابرة ، فكم من طبيب كشف عن جسمي ! وكم من دواء شقت مرارته مرارتي ! أين أولادي ؟ ليصنعوا مثل الخلفة حولي ، وأخذت تقبل هذا ، وتمسح بيدها رأس ذاك ، وتبلل بالدموع وجوههم جميعاً ، كل ذلك وهم في غفلة ساهون يفرحون ويمرحون إلا أكبرهم فكانت دموعه تسابق دموع أمه فيكيان معاً . وبعد قليل استنجدت بجرعات من الزجاجة فشربتها فنامت ثم استيقظت بعد نصف ساعة وكأنما نشطت من عقال ، فاستفاقت وعاد اليها برد الأمل ، وما رأيتها في أوقات مرضها أسعد حالا وأعظم سروراً من تلك الساعة ، وقلت لها : ألم أقل لك كثيراً إن الانسان قد يصل به المرض إلى الغاية ثم يشفى ، وأنا أعرف كثيراً من الناس بهذه المثابة

* * *

وما انتصف الليل أو كاد حتى زلزلت الأرض زلزالها ! ! إنه موقف الموت الرهيب ! ! فرأيت نفسي في مأزق حرج لم أشهده طول حياتي . إنه رسول الموت جاء ليحسم الأمر بمد طول جدال !

جاء « لتقطع جهيزة قول كل خطيب »

ولتحط أمّ الرّحال بعد طول تهجير فقد أضناها السُّرى وبَرِمتْ بالحياة الدنيا . رأيتها تسلم الروح إلى بارئها في يقظة وانتباه ونفسها معلقة بأولادها وكأنها تخاطب رسول الموت : قف قليلا لأشهد الكون أني ذهبت إلى الله وخلّفتُ في الدنيا أطفالاً هم بهجة قلبي وحُشاشة نفسي . قف قليلا لأودعهم الوداع الأخير

ثم مسحتْ آلام المرض الطويل وغسلتْ كل أسقامها البرحة بكلمة ان أناسها طول حياتي كانت مفتاح الآخرة « دعوني أستريح . أشهد ألا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله » ثم صارت جثة هامدة

* * *

سهرت ليلة من ليالي العمر بَيّضت سواد شعري ، وكلما دقت الساعة دقت معها شعرة من رأسي لتعلن استحالة السواد بياضاً حتى أدركني الصباح

* * *

أنا غريب في هذه المدينة التي صارت مثوى زوجي ، ومرقد جزء من أجزاء نفسي ، وقد غادرت أنا في العاشرة من عمري لأطوف في نواحي الأرض في سبيل العيش الذي بعض عوائقه اليوم

ولا والله ما شعرت بلذع الغُربة يُحرق كبدي إلا في هذا اليوم العصيب .

* * *

ذهبت مبكراً إلى منزل الصديق الصدوق الأستاذ « مصطفى صادق الرافعي » أحسن الله جزاءه فأيقظته من النوم فعرف سر البكور قبل أن يلقاني وأن قضاء الله قد حمّ ، فجاءني مذعورا فقلت له : « أي مقبرة آل الرافعي مكان للغريبة ؟ »

* * *

ومشينا والنعش يتهادى أمامنا ، فرأيت بعيني سياج حياتي يتحطم ، وضياء بيتي ينطفئ ، وزوجي في ظلمات القبور !

* * *

فيا قبرُ رفقاً بها فقد كانت عزيزة علينا !! ويا أحجارة كوني على جثتها أوراق الجنة

(القاهرة) جنينة حسن الخازندار